# نصب الإمام

# و

# ملابسات الرسالة

آية الله الشيخ جعفر السبحاني

بسم الله الرحمن الرحيم

# المقدمة

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على خاتم النبيين وآله الطيبين.

الغدير في اللغة: منخفض من الأرض تجتمع فيه مياه الغيوث والأمطار.

هذا هو معنى لفظة الغدير في اللغة.. إنها تعني منطقة محدودة من الأرض.

ولكن الغدير الذي يمثل أعظم واقعة في الإسلام ليس بِركة محدودة الشطوط، ومساحة محصورة من الأرض.

انه بحر عظيم بعيد السواحل عديد الضفاف.

أجل ان الغدير بحر ذو سواحل بعيدة وضفاف عديدة.

ولا يمكن لأحد أن يخوض هذا البحر ويسير اغواره وينزل إليه من جميع ضفافه وسواحله.

ولهذا فاننا ننزل إلى هذا البحر الخضم من ضفة واحدة، تاريكن بقية الضفاف للاخرين.

وهذه الناحية هي ان ندرس الظروف الإجتماعية والسياسية الداخلية منها والخارجية التي حتمت نصب الإمام وتعيين الخليفة ولم تسمح بالقاء الحبل على الغارب وترك الأمر للقدر.

وهذا هو ما عالجناه في هذا الماقل آملين أن يُنظر إليه بالنظر الموضوعي المحايد لتتضح الحقيقة.

لا شك في ان الدين الإسلامي دين عالمي وشريعة خاتمة وقد كانت قيادة الأمة الإسلامية من شؤون النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ما دام على قيد الحياة وكان عليه أن يوكل مقام القيادة من بعده إلى أفضل أفراد الأمة وأكملهم.

ان في هذه المسألة ـ وهي هل أن منصب القيادة بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم هل هو منصب تنصيصي تعييني أو انه منصب انتخابي ـ اتجاهين:

فالشيعة: يرون أن مقام القيادة منصب تنصيصي ولابد أن يتعين خليفة النبي صلى الله عليه وآله وسلم من جانب الله سبحانه بينما يرى أهل السنّة أنّ هذا المنصب منصب انتخابي جمهوري أي أن على الأمة أن تقوم بعد النبي بأختيار فرد من أفرادها لإدارة البلاد.

ان لكل من الاتجاهين المذكورين دلائل ذكرها أصحابهما في الكتب العقائدية إلاّ أن ما يمكن طرحه هنا هو تقييم ودراسة المسألة في ضوء دراسة وتقييم الظروف السائدة في عصر الرسالة فإن هذه الدراسة كفيلة باثبات صحة هذا الاتجاه أو ذلك.

ان تقييم الأوضاع السياسية داخل المنطقة الإسلامية وخارجها في عصر الرسالة يقضي بأن خليفة النبي لابدّ أن يعيّن من جانب الله تعالى ولا يترك الأمر من دون مثل هذا التعيين الإلهي فإن المجتمع الإسلامي كان مهدداً على الدوام من جانب الخطر الثلاثي (الروم ـ ايران ـ المنافقون) بشن الهجوم الكاسح والقاء بذور الفساد والاختلاف بين المسلمين.

كما ان مصالح الأمة كانت توجب ان يوحد صفوف المسلمين في مواجهة الخطر الخارجي وذلك بتعيين قائد سياسي من بعده وبذلك يسدّ الطريق على نفوذ العدو في جسم الأمة الإسلامية والسيطرة عليها وعلى مقدراتها.

**وإليك بيان وتوضيح هذا المطلب:**

**لقد كانت الامبراطورية الرومية أحد أضلاع المثلث الخطر الذي يحيط بالكيان الإسلامي ويتهدده من الخارج والداخل.**

**وكانت هذه القوة الرهيبة تتمركز في شمال الجزيرة العربية وكانت تشغل بال النبي القائد على الدوام حتى أن التفكير في أمر الروم لم يغادر ذهنه وفكره حتى لحظة الوفاة والالتحاق بالرفيق الأعلى.**

**وكانت أولى مواجهة عسكرية بين المسلمين والجيش المسيحي الرومي وقعت في السنة الهجرية الثامنة في أرض فلسطين وقد آلت هذه المواجهة إلى مقتل القادة العسكريين البارزين الثلاثة وهم: جعفر الطيار، وزيد بن حارثة، وعبد الله بن حارثة.**

**ولقد تسبب انسحاب الجيش الإسلامي بعد مقتل القادة المذكورين إلى تزايد جرأة الجيش القيصري المسيحي فكان يُخشى بصورة متزايدة أن تتعرض عاصمة الإسلام للهجوم الكاسح من قبل هذا الجيش.**

**من هنا خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في السنة العاشرة للهجرة على رأس جيش كبير جداً إلى حدود الشام ليقود بنفسه أية مواجهة عسكرية وقد استطاع الجيش في هذه الرحلة الصعبة المضنية أن تستعيد هيبتها الغابرة وتجدد حياتها السياسية.**

**غير أن هذا الانتصار المحدود لم يقنع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأعد قبيل مرضه جيشاً كبيراً من المسلمين وأمر عليهم أسامة بن زيد وكلفهم بالتوجه إلى حدود الشام والحضور في تلك الجبهة.**

**أما الضلع الثاني من المثلث الخطير الذي كان يتهدد الكيان الإسلامي كانت الامبراطورية الإيرانية (الفارسية) وقد بلغ من غضب هذه الامبراطورية على رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم ومعاداتها لدعوته ان أقدم امبراطور ايران (خسروبرويز) على تمزيق رسالة النبي وتوجيه الاهانة إلى سفيره باخراجه من بلاطه والكتابة إلى واليه وعميله باليمن بأن يوجه إلى المدينة من يقبض على رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم أو يقتله ان امتنع.**

**و (خسرو) هذا وان قتل في زمن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم إلاّ ان موضوع استقلال اليمن ـ التي رزحت تحت استعمار الامبراطورية الايرانية ردحاً طويلاً من الزمان ـ لم يغب عن نظر ملوك ايران انذاك وكان غرور أولئك الملوك وتجبرهم وكبرياءهم لا يسمح بتحمل منافسة القوة الجديدة (القوة الإسلامية) لهم.**

**والخطر الثالث كان هو خطر حزب النفاق الذي كان يعمل بين صفوف المسلمين في صورة الطابور الخامس وعلى تقويض دعائم الكيان الإسلامي من الداخل إلى درجة أنهم قصدوا اغتيال رسول الله في طريق العودة من تبوك إلى المدينة.**

**فقد كان بعض عناصر هذا الحزب الخطر يقول في نفسه: ان الحركة الإسلامية سينتهي أمرها بموت رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم ورحليه وبذلك يستريح الجميع.**

**ولقد قام أبو سفيان بن حرب بعد وفاة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم بمكيدة مشؤومة لتوجيه ضربة إلى الأمة الإسلامية من الداخل وذلك عندما أتى علياً عليه السلام وعرض عليه أن يبايعه في مقابل من عينه رجال السقيفة ليستطيع بذلك تشطير الأمة الإسلامية الواحدة إلى شطرين متحاربين متقاتلين فيتمكن من التصيد في الماء العكر.**

**ولكن الإمام علياً عليه السلام أدرك بذكائه البالغ نوايا أبي سفيان الخبيثة فرفض مطالبه وقال له كاشفاً عن دوافعه**

**ونوايه الشريرة:**

**(والله ما أردت بهذا إلاّ الفتنة وانك والله طالما بغيت للإسلام شراً.. لا حاجة لنا في نصيحتك)(1).**

**ولقد بلغ دور المنافقين التخريبي من الشدة بحيث تعرض القرآن لذكرهم في سور عديدة هي سورة آل عمران، والنساء، والمائدة، والأنفال والتوبة والعنكبوت والأحزاب ومحمّد والفتح والمجادلة والحديد والمنافقين والحشر.**

**فهل مع وجود مثل هؤلاء الأعداء الخطرين والأقوياء الذين كانوا يتربصون بالإسلام الداوئر ويتحينون الفرص للقضاء عليه أن يترك رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم امته الحديثة العهد بالإسلام الجديدة التأسيس من دون أن يعين لهم قائداً دينياً سياسياً.**

**إن المحاسبات الإجتمايعة تقول: إنه كان يتوجب أن يمنع رسول الإسلام بتعيين قائد للأمة من ظهرو أي اختلاف وانشقاق فيها من بعده، وأن يضمن استمرار وبقاء الوحدة الإسلامية بايجاد حصن قوي وسياج دفاعي متين حول تلك الأمة.**

**إن تحصين الأمة وصيانتها من الحوادث المشؤومة والحيلولة دون حدوث ظاهرة مطالبة كل فريق الزعامة لنفسها دون غيرها وبالتالي التنازع على مسألة الخلافة والزعامة لم يكن ليتحقق إلاّ بتعيين قائد للأمة وعدم ترك الأمور للقدر.**

**إن المحاسبة الاجتماعية تهدينا إلى صحة نظرية التنصيص على القائد بعد رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم ولعل لهذه الجهة ولجهات أخرى طرح رسول الإسلام مسألة الخلافة في الأيام الأولى من ميلاد الرسالة وظل يواصل طرحها والتذكير بها طوال حياته حتى الساعات الأخيرة منها حيث عين خليفته ونص عليه بالنص القاطع الواضح الصريح في بدء دعوته وفي نهايتها أيضاً.**

**وإليك بيان كلا هذين المقامين:**

## 1 ـ النبوة والإمامة توأمان:

**بغضّ الأدلة العقلية والفلسفية على المحاسبة الاجتماعية التي تثبت حقانية الرأي الأول بصورة قطعية هناك أخبار وروايات وردت في المصادر المعتبرة تثبت صحة الموقف والرأي الذي ذهب إليه علماء الشيعة وتصدقه فقد نص النبي صلّى الله عليه وآله وسلم على خليفته من بعده في الفترة النبوية من حياته مراراً وتكراراً وأخرج موضوع الإمامة من مجال الانتخاب الشعبي والرأي العام.**

**فهو لم يعين (ولم ينص على) خليفته ووصيه من بعده في أخريات حياته فحسب بل بادرإلى التعريف بخليفته ووصيه في بدء الدعوة يوم لم ينضو تحت راية رسالته بعد سوى بضع عشرة من الأشخاص وذلك يوم أمر من جانب العلي القدير أن ينذر عشيرته الأقربين من العذاب الإلهي الأليم وأن يدعوهم إلى عقيدة التوحيد قبل أن يصدع برسالته للجميع ويبدأ دعوته العامة للناس كافة.**

**فجمع أربعين رجلاً من زعماء بني هاشم وبني المطلب ثم وقف فيهم خطيباً فقال:**

**(أيكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصي وخليفتي فيكم)**

فأحجم القوم وقام عليّ عليه السلام وأعلن مؤازرته وتأييده له فأخذ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم برقبته والتفت إلى الحاضرين وقال:

(إن هذا أخي ووصي وخليفتي فيكم)(2).

وقد عرف هذا الحديث عند المفسرين والمحدّثين بـ (حديث يوم الدار) و (حديث بدء الدعوة).

على أن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم لم يكتف بالنص على خليفته في بدء رسالته إنما صرح في مناسبات شتى في السفر والحضر بخلافة عليّ عليه السلام من بعده ولكن لا يبلغ شيء من ذلك في الأهمية والظهور والصراحة والحسم ما بلغه حديث الغدير.

## 2 ـ قصة الغدير:

لما انتهت مراسيم الحج وتعلم المسلمون المناسك عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم قرر رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم الرحيل إلى مكة والعودة إلى المدينة فأصدر أمراً بذلك ولما بلغ موكب الحجيج العظيم إلى منطقة رابغ(3) التي تبعد عن الجحفة(4) بثلاثة أميال نزل أمين الوحي جبرئيل على رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم بمنطقة تدعى (غدير خم) وخاطبه بالآية التالية:

(يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربّك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس)(5).

ان لسان الآية وظاهرها يكشف عن أن الله تعالى ألقى على عاتق النبي صلّى الله عليه وآله وسلم مسؤولية القيام بمهمة خطيرية وأي أمر أكثر خطورة من أن ينصب علياً عليه السلام لمقام الخلافة من بعده على مرأى ومسمع من مائة ألف شاهد.

من هنا أصدر رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم أمره بالتوقف فتوقفت طلائع ذلك الموكب العظيم والتحق بهم من تأخر.

لقد كان الوقت وقت الظهيرة وكان الجو حاراً إلى درجة كبيرة جداً. وكان الشخص يضع قسماً من عبائته فوق رأسه والقسم الآخر منها تحت قدميه وصنع للنبي صلّى الله عليه وآله وسلم مظلة كانت عبارة عن عباءة ألقيت على أغصان شجرة (سمره) وصلّى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم بالحاضرين الظهر جماعة وفيما كان الناس قد أحاطوا به صعد رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم على منبر أعد من أحداج الابل وأقتابها وخطب في الناس رافعاً صوته وهو يقول:

(الحمد لله ونستعينه ونؤمن به ونتوكل عليه، ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، الذي لا هادي لمن ضل، ولا مضل لمن هدى، وأشهد أن لا إله إلا هو، وأن محمّداً عبده ورسوله).

أما بعد: أيها الناس قد نبأني اللطيف الخبير انه لم يعمر نبي إلا مثل نصف الذي قبله وإني أوشك أن أدعى فأجيب وإني مسؤول وأنتم مسؤولون فماذا أنتم قائلون؟

قالوا: نشهد أنك قد بلغت ونصحت وجهدت فجزاك الله خيراً.

قال صلّى الله عليه وآله وسلم:

**ألستم تشهدون أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمّداً عبده ورسوله وان جنته حق وان الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور؟**

**قالوا:**

**بلى نشهد بذلك.**

**قال صلّى الله عليه وآله وسلم:**

**اللّهمّ أشهد.**

**ثم قال صلّى الله عليه وآله وسلم:**

**إني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا أبداً.**

**فنادى مناد:**

**بأبي أنت وأمي يا رسول الله وما الثقلان؟**

**قال صلّى الله عليه وآله وسلم:**

**كتاب الله سبب طرف بيد الله وطرف بأيديكم فتمسكوا به والآخر عترتي وان اللطيف الخبير نباءني انهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض فلا تقدموهما فتهلكوا ولا تقصروا عنهما فتهلكوا.**

**وهنا أخذ بيد عليّ عليه السلام ورفعها حتى رؤي بياض أباطهما وعرفه الناس أجمعون ثم قال:**

**أيها الناس من أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم؟**

**قالوا:**

**الله ورسوله أعلم.**

**فقال صلّى الله عليه وآله وسلم:**

**ان الله مولاي وأنا مولى المؤمنين وأنا أولى بهم من أنفسهم فمن كنت مولاه فعلي مولاه(6) اللّهمّ وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله وأحب من أحبه وأبغض من أبغضه وأدر الحق معه حيث دار(7).**

## واقعة الغدير خالدة إلى الأبد:

**ولقد تعلقت المشيئة الربانية بأن تبقى واقعة الغدير التاريخية في جميع القرون والعصور كتاريخ حي يجتذب القلوب والأفئدة ويكتب عنه الكتاب الإسلاميون في كل عصر وزمان ويتحدثون حوله في مؤلفاتهم المتنوعة في مجال التفسير والتاريخ والحديث والعقائد كما يتحدث حوله الخطباء في مجالس الوعظ ومن فوق صهوات المنابر ويعتبرونها من فضائل الإمام عليّ الذي لا يتطرق إليها أي شك أو ريب.**

**ولم يقتصر هذا على الكتاب والخطباء بل استلهم الشعراء من هذه الواقعة الكبرى التي فجرت بالتفكير حول هذه الحادثة وبالاخلاص لصاحب الولاية ينابيع التعبير في وجودهم فأنشأوا أروع القصائد وجادت قرائحهم بأنواع مختلفة من القصيد الجميل وخلفوا لمن بعدهم وبلغات مختلفة آثاراً أدبية وولائية خالدة.**

**ولهذا قلما نجد حادثة تاريخية حظيت في العالم البشري عامة وفي التاريخ الإسلامي والأمة الإسلامية خاصة بمثل ما**

حظيت به واقعة الغدير، وقلما استقطبت اهتمام الفئات المختلفة من المحدّثين والمفسرين والكلاميين والفلاسفة والشعراء والأدباء والكتاب والخطباء وأرباب السير والمؤرخين كما استقطبته هذه الحادثة وقلما اعتنوا بشيء مثلما اعتنوا بها.

إن من أسباب خلود هذه الواقعة الكبرى ودوام هذا الحديث هو نزول آيتين من آيات القرآن الكريم فيها(8) فما دام القرآن الكريم باقياً مستمراً يتلى آناء الليل وأطراف النهار تبقى هذه الحادثة في الأذهان والنفوس ولا تمحو خاطرتها من العقول والقلوب.

وحيث ان المجتمع الإسلامي في العصور الغابرة وكذا الطائفة الشيعية كانوا يعتبرون هذا اليوم عيداً كبيراً من الأعياد الدينية وكانوا يقيمون فيها ما يقيمونه من المراسيم في الأعياد الإسلامية لهذا فإنّ هذه الحادثة التاريخية (حاثة الغدير) قد اتخذت طابع الأبدية والخلود الذي لا تمحى معه خاطرتها من الأذهان والخواطر.

هذا ويستفاد من مراجعة التاريخ بوضوح أن اليوم الثامن عشر من شهر ذي الحجة الحرام كان معروفاً بين المسلمين بيوم عيد الغدير وكانت هذه التسمية تحظى بشهرة كبيرة إلى درجة أن ابن خلكان يقول حول (المستعلى بن المستنصر):

فبويع في يوم غدير خم وهو الثامن عشر من شهر ذي الحجة سنة 487(9).

وقال في ترجمة المستنصر بالله العبيدي:

(وتوفي ليلة الخميس لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ذي الحجة سنة سبع وثمانين وأربعمائة قلت: وهذه هي ليلة عيد الغدير أعني ليلة الثامن عشر من شهر ذي الحجة وهو غدير خم(10)).

وقد عده أبو ريحان البيروني في كتابه الآثار الباقية مما استعمله أهل الإسلام من الأعياد(11). وليس لابن خلكان وأبو ريحان البيروني هما الوحيدان اللذان صرحا بكون هذا اليوم هو عيد من الأعياد بل الثعالبي قد اعتبر هو الآخر ليلة الغدير من الليالي المعروفة بين المسلمين(12).

إن عهد هذا العيد الإسلامي وجذوره ترجع إلى نفس يوم الغدير لأنّ النبي صلّى الله عليه وآله وسلم أمر المهاجرين والأنصار بل أمر زوجاته ونساءه في ذلك اليوم بالدخول على عليّ عليه السلام وتهنئته بهذه الفضيلة الكبرى.

يقول زيد بن أرقم: كان أول من صافق النبي صلّى الله عليه وآله وسلم وعلياً أبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وباقي المهاجرين والأنصار وباقي الناس(13).

ونحن باجتماعنا الباهر في هذا اليوم الزاهر نجسد ولاءنا الخالص لصاحب الولاية الذي ضحى بنفسه ونفيسه في سبيل نشر الدين ودعم أركانه.

سلام الله عليه يوم ولد ويوم استشهد ويوم يبعث حياً.

---

هوامش

1 ـ الكامل في التاريخ 2: 222، والعقد الفريد 2: 249.

2 ـ تاريخ الطبري 2:216، الكامل في التاريخ 2:62 و63 وقد مر مفصله في هذه الدراسة فراجع.

3 ـ رابغ تقع الآن على الطريق بين مكة والمدينة.

4 ـ من مواقيت الاحرام وتتشعب منها طرق المدنيين والمصريين والعراقيين.

5 ـ المائدة: 67 .

6 ـ لقد كرر النبي صلى الله عليه وآله وسلم هذه العبارة ثلاث مرات دفعاً لأي التباس أو اشتباه .

7 ـ راجع للوقوف الكامل على مصادر هذا الحديث المتواتر موسوعة الغدير للعلامة الأميني (ره).

8 ـ المائدة 67 و3 .

9 ـ وفيات الأعيان 1 : 60.

10 ـ وفيات الأعيان 1: 60.

11 ـ ترجمة الآثار الباقية ص 395، الغدير 1 : 267 .

12 ـ ثمار القلوب : 511.

13 ـ راجع مصدره في الغدير 1: 270.